الإمام

الحارث بن أسد المحاسبى متكلما

بقلم

د/ راشد محمد راشد سليمان

مدرس العقيدة والفلسفة بالكلية

الحمد لله ، نور السماوات والأرض يهب الحكمة لمن يشاء من عباده فيصيب بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه مشكاة الهدى ومنارة العارفين ورائد المفكرين إلى رحاب المعرفة واليقين برب العالمين وعلى آله وإخواته من الأنبياء والمرسلين وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

إن الإمام المحاسبى هو أحد الأئمة الإعلام الذي نذر حياته فى سبيل الله وتصدى للطوائف المنحرفة عن المنهج الحق فبين ماالديها من زيف وضلال وجادل بالحق والبرهان متبعا منهج سلف الأمة الصالح من لدن صحابة رسول الله صلى الله وعليه وسلم ومن تبعهم بإحسان فاثرى المكتبة الإسلامية بالكثير من الكتب التى توضح منهج السلف الصالح وما كانوا عليه فى الاعتقاد والعبادة والتشريع ومحاسبة النفس ووصف العلاج لأمراضها وطرق مجالات عدة أبرزها فى محاسبة النفس ووصف الطريق للسالكين إلى رحاب المعرفة برب العالمين وقد عودى من أصحاب الاراء الضالة وشوهت كتبه ومؤلفاته واندرس كثير منها ولم تلحق من الاهتمام والنشر مالقيته كتب غيره من العلماء.

ومنذ عهد قريب سطع على الوجود بعض كتبه فقام بتحقيقها نخبة من العلماء الأجلاء إلا أن هذه الكتب كلها تشتمل على منهجه فى محاسبة النفس والتوبة وغيرها من أبحاث التصرف ولم يظهر إلى الوجود الكتب التى تشتمل على منهجه الكلامى - العقائدى - إلا منذ سنوات قليلة - فقد ظهر لنا من كتبه العقائدية كتابان الأول بعنوان مائين العقل والثانى بعنوان فهم القرآن.

والمحاسبى فى هذين الكتابين له منهجه الفريد الذى يختلف فيه عن غيره منهج متميز قائم على فهم القرآن الكريم واستنباط الأدلة منه فهم العالم المدقق ثم هو فى إستدلالاته ينصر مذهب السلف ولا يحيد عنه بل يزيده . بالعقل والمنطق السليم ويدفع الشبه التى أثارها أعداء الإسلام ضد العقيدة الإسلامية.

وماأحوج العالم الإسلامى اليوم أن يعود إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فيقرأ القرآن ويتدبر آياته ويفهم مافيه من معان ويدرس السنة النبوية دراسة متأنية فهى المعين الذى لا ينضب.

والمحاسبى أحد هؤلاء الإعلام الذين إستقوا عقائدهم من فهمهم للقرآن الكريم

والسنة النبوية المطهرة لذلك أثرت أن يكون هذا البحث بعنوان الإمام الحارث ابن أسد المحاسبي متكلما فهذا الجانب لم يتوجه أحد بدراسته بعد.

على أن هذه الدراسة ليست شاملة لكل ماطرحه الإمام المحاسبي من مسائل كلامية ولا كل ماعالجه من مشكلات عقائدية إنما توجهت بهذه الدراسة لكى ألفت الأنظار فقط إلى أن يتجهوا لدراسة الجانب العقائدى لمثل هؤلاء الإعلام وبذلك نعود بدراستنا إلى القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد قسمت هذا البحث إلى قسمين :

القسم الأول : تحدثت فيه عن حياة الإمام المحاسبي.

القسم الثاني : تحدثت فيه عن منهج المحاسبي في علم الكلام.

وفى هذا القسم تعرضت لأهم المسائل الكلامية والتى أثارتها الفرق الموجودة أنذاك واتجه المحاسبي فذكر شبههم ورد عليهم وهذه المسائل هى :

١- المعرفة ٢- الذات والصفات ٣- قضية النسخ ٤- خلق القرآن

والكتابان يشتملان على مسائل كثيرة لا يتسع لها مثل هذا البحث بل ربما أن هناك كتب أخرى لازالت مطمورة ولم تتهيأ الظروف لاخراجها.

والله أسأل أن يعلمنا ماجهلنا وأن ينفعنا بما علمنا.

انه سميع قريب مجيب الدعاء.

التعريف بالإمام المحاسبى

نسبه ومولده

هو الإمام أبوعبدالله بن أسد العنزى ويكنى بالمحاسبي وهو عربي الأصل حيث إن والده أسد العنزى من العرب كما أخبر بذكل بعض الباحثين(١).

اختلف الباحثون في تحديد زمن ولادته وجل الآراء تميل أنه ولد فى العقد السابع من القرن الثانى للهجرة النبوية.

أما وفاته فإن الكتب القديمة التى أرخت له تجمع أن وفاته كانت سنة ٢٤٣هـ وكانت وفاته ببغداد وفيها دفن.

يحدثنا الإمام القشيرى عنه فيقول [أبوعبدالله الحرث بن أسد المحاسبي عديم النظير في زمانه علما وورعاً ومعاملة وحالا. بصرى الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ قيل إنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئاً وقال صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يتوارث أهل ملتين شيئاً»(٢).

ويقول عنه إبن النديم [الحارث بن أسد المحاسبى البغدادى من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد فى الدنيا والمواعظ وكان فقيها متكلما مقدما ...](٣).

ويقول عنه الحافظ شمس الدين الذهبى [الحارث بن أسد المحاسبى أبوعبدالله البغدادى الصوفى الزاهد العارف صاحب المصنفات في أحوال القوم..](٤).

من خلال هذه النصوص أستطيع أن أقول بأن هناك إتفاق من المؤرخين على تحديد زمن وفاته وأن هناك إختلاف بينهم فى أصله هل هو بصرى ؟ أم هو بغدادي؟.

الحقيقة التى لا شك فيها أن المحاسبى بصرى الأصل وذكر الإمام القشيرى ذلك أما ماذكره إبن النديم وتابعه فيه الحافظ الذهبى فهو نسبه إلى البلدة التى توفى فيها والدليل على ذلك أن الإمام القشيرى هو الوحيد الذى تفضل علينا ببيان أصله ومكان وفاته أما إبن النديم والحافظ الذهبى فإنهما لم يذكرا لنا شيئا عن ذلك سوى أنه بغدادي.

(١) مقدمة كتابي العقل وفهم القرآن للدكتور حسين القوتلى دار الفكر العربى الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٢م.

(٢) الرسالة القشيرية الإمام القشيرى الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩م ص ١٢ ، ١٣.

(٣) الفهرست لابن النديم الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٧٨م ص ٢٦١.

(٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير للحافظ شمس الدين الذهبى حوادث سنة ٢٤١ إلى سنة ٢٥٠ دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى ص ٢٠٥.

ويؤيد ذلك ماذكره الدكتور حسين القوتلي عنه أنه رحل من البصرة إلى بغداد مع أسرته وهو في صغره وهذا يدل على أنه بصري الأصل أيضا[1].

وماذكره الإمام القشيرى عنه يعطينا الملامح العامة لحياة الإمام المحاسبي وذلك لفقدان الآثار التي تحدثنا عن حياته وعن رحلاته في طلب العلم وفي نشر المعرفة ولذا فسيكون ماذكره الإمام القشيرى عنه هو العمدة في بيان بعض الملامح الشخصية لحياة الإمام المحاسبي.

أسـرتـه :

إذا أردنا أن نتعرف على أسرة الإمام المحاسبي فالقشيرى بين لنا أن أسرته كانت أسرة ميسورة الحال حيث يقول {ورث عن أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئا قيل لأن أباه يقول بالقدر}[2].

وماذكره القشيرى فإنه يشير إلى عدة ملاحظات :

الملاحظة الأولى : أن أسرة الإمام المحاسبي كانت أسرة تعيش عيشة مترفة وفي رغد من العيش.

الملاحظة الثانية : أن أباه كان على ثقافة عالية ومكانة علمية لا يستهان بها وأنه كان على صلة وطيدة بالخليفة العباسي أنذاك ويدل على ذلك ماقاله القشـيرى عن أبيه أنه كان قدريا أى يقول بالقدر أى أنه كان يميل إلى الاعتزال إن لم يكن من رجالهم ولا يقول بالقدر ولا يؤيد المعتزلة في معتقداتهم إلا ممن هو ذو فكر جيد وصاحب عقل راجح وصاحب حجة قوية بها يستطيع أن يدافع عن معتقده يقول الدكتور عبدالحيم محمود {إن والد المحاسبي كان من الذين إشتركوا في الثقافة الدينية والجدل الكلامي وساهم في ذلك بنصيب وحدد العسكر الذي يقف جنديا في جيشه ومامن ريب في أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة وماكان الذى يدين بما يدين المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة متانية وإختيار وأن الطريق التقليدى الذي كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة}[3].

الملاحظة الثالثة : أن الإمم المحاسبي قد شب على كراهيته لرجال المعتزلة والفكر الاعتزالى وذلك لأن أمه كانت عدوة للقدرية فضلا عن تتلمذه على يد رجال الحديث ثم على يد الفقهاء وهؤلاء وأولئك كانت كراهيتهم للمعتزلة معلومة والذى يدل

---

(٢) الرسالة القشيرية صـ ١٢ .   (١) أنظر مقدمة كتابيفهم القرآن والعقل صـ ١٨ .

(٣) إسناد السائرين (المحاسبى) الدكتور عبد الحليم محمود دار المعارف سنة ١٩٩٢ صـ ٩ .

على أنه كان يكره المعتزلة وفكرهم مارواه الخطيب البغدادى حيث يقول [... رأيت أباعبدالله الحارث بن أسد المحاسبى بباب الطاق فى وسط الطريق متعلقا بأبيه والناس قد اجتمعوا عليه وهو يقول له : طلق أمى فإنك على دين وهى على غيره](1). بل إن شدة كراهيته للفكر الاعتزالى ولرجال المعتزلة جعله يترك ماله الذى ورثه عن أبيه بحجة أن أباه على دين وهو على غيره وقد تركه مع شدة حاجته له.

يقول الإمام القشيرى عنه {فرأى أن لا يأخذ من ميراثه شيئا وقال صحت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يتوارث أهل ملتين شيئا سمعت ... محمد بن مسروق يقول مات الحرث بن أسد المحاسبى وهو محتاج إلى درهم وخلف أبوه ضياعا وعقاراً فلم يأخذ منه شيئاً }(2).

وقال عنه الجنيد { مات والد الحارث يوم مات وإن الحارث محتاج إلى دانق وخلف مالا كثيراً فما أخذ منه الحارث حبه وقال أهل ملتين لا يتوارثان وكان أبوه واقفيا يعنى يقف فى القرآن لا يقول مخلوق ولا غير مخلوق }(3).

ويقول الدكتور حسين القوتلى {ونشأ الحارث فى بحبوحة من العيش فى تلك البيئة المثقفة ويظهر أنه كان يميل إلى أمه أكثر من أبيه إذ أنه من المعروف المعتزلة كانوا يكرهون المحدثين فلم يكن تنتظر والحالة هذه أن ينصرف الحارث إلى حلقاتهم ومع ذلك فإن هناك إشارات فى فهم القرآن تدل على أنه أقبل فى وقت مبكر من حياته ينهل العلم من رجال الإسناد}(4).

من خلال هذه النصوص أستطيع أن أقول بأن الحارث نشأ فى عيشة مترفة وفى بحبوحة من العيش وهذا هو ماأجمع عليه العلماء ولكنهم إختلفوا فى عقيدة أبيه فذهب القشيرى إلى أن أباه كان قدرياً وذهب الحافظ الذهبى إلى أنه كان واقفيا وأيا كان مذهب والده فإن هذا لا يعطينا التفسير الحقيقى لعداوته لأبيه وترك ماله وتعلقه بأبيه فى باب الطان ببغداد وطلبه منه أن يطلق أمه.

أقول إذا كان الإمام المحاسبى قد ترك مال أبيه فلم يأخذ منه شيئاً فإن ذلك من قبيل التشدد فى الورع لا من قبيل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا توارث بين أهل ملتين وقد تكون هذه الرواية التى رويت عن المحاسبى غير صحيحة

---

(1) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ٨ صـ ٢١٤ المكتبة السلفية بدون تاريخ .

(2) الرسالة القشيرية ص ١٢ ، ١٣ .

(3) تاريخ الإسلام للذهبى حوادث سنة ٢٤١ ص ٢٠٦ .

(4) مقدمة العقل وفهم القرآن صـ ١٣ .

ومما يؤيد ذلك أن المحاسبى نفسه فى مناقشاته للمعتزلة والرافضة فى كتابه فهم القرآن لايكفرهم ولا يرميهم بالكفر بل إنه يكتفى بتبديعهم يقول المحاسبى [وقد تأول بعض من يدعى السنة وبعض أهل البدع ذلك على الحدوث فأما من إدعى السنة فأراد إثبات القدر ... وأما بعض أهل البدع فزعموا أن الإرادة أنما هى خلق حادث وليست بمخلوقه](١). ويقول فى حديثه عن قضية خلق القرآن ... [ولقــد جامعنا

قوم من أهل الضلال على ذلك لئلا يقع النسخ من الله عز وجل فى أخباره... ثم جهلوا إذا أرادوا أن يقووا رأيهم بأن كلام الله مخلوق ...](٢).

فالإمام المحاسبى فى مناقشاته للروافض والجهمية والحشوية والمعتزلة لا يكفرهم ولا يرميهم بالكفر بل إنه يكتفى بأن يقول إنهم على ضلال وانهم ابتدعوا فى الدين ماليس فيه وإذا كان هذا الأمر مع المخالفين له فى المذهب فهل يصح من عاقل فضلا عن كونه إماما للمسلمين أن يرمي أباه بالكفر وأن يترك ماله لأن أباه على دين وهو على غيره ؟.

طفــــولتـــه :

لم يذكر لنا الإمام القشيرى ولا المؤرخين لحياة المحاسبى شيئاً عن طفولته وكل ماذكر عن طفلوته فهو من قبيل الظن والتخمين.

وأستطيع أن أتصور أنه تعلم فى صباه كما يتعلم أبناء المسلمين القراءة والكتابة وبعض النحو والعربية وحفظ القرآن وبعض الحديث والفقه وهذا هو المنهج الابتدائى الذى جرت العادة أن يتعلمه جميع الصبيان.

ولعل من أسرار تقدم الحضارة العربية وازدهارها أن التعليم كان حرا من كل قيد اللهم إلا الميل والرغبة. هذا يهوى العلوم الشرعية فيتجه اليها وذاك يعشق الحديث فيرحل لطلبه من رجاله وثالث يميل إلى علم الكلام أو التصوف أو الطب أو الرياضيات فيتعمقها وأفضل دراسة ماكانت عن ميل أصيل فى النفس.

وقد مالت نفس المحاسبى إلى الاتجاه إلى دراسة علم الحديث والاسناد وذلك واضح من روايته الحديث عن رجال الاسناد كما ذكر هو ذلك في كتابه فهم القرآن ثم إتجه إلى علم التصوف فدرسه دراسة وافية وكانت له مكانة عالية وحكمة بالغة ثم درس علم الكلام وكانت له مناقشة مع الفرق الكلامية والتى كانت موجودة

(١) فهم القرآن للمحاسبى صـ ٣٤٢ . (٢) المرجع السابق صـ ٣٦٣ .

آنذاك.

يقول الدكتور عبدالحليم محمود {وحياته الشخصية لا نعلم عنها شيئاً وقد يمكننا أن نقول إستنتاجاً إنه قضى طفولة في شيء من اليسر والرخاء ذلك أن والده حينما توفى ترك له ثروة تقدر بسبعين ألف درهم}(١).

ثم رحل مع أسرته إلى بغداد وهناك إتسعت مداركه ومالت نفسه إلى معرفة المزيد من العلوم والمعارف وهو فى قبلة الطالبين للعلم والمعرفة آنذاك.

يقول الدكتور القوتلى {ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن وقائع حياته الأولى إلا خروجه من البصرة إلى بغداد فى صغره وربما كانت تلك رحلته الأولى .. كما أننا نستطيع أن نخمن من رواياته عن هذه الكثرة من المحدثين أنه قضى شبابه فى بيئات المحدثين والفقهاء مما سيكون له أثره العميق فى إتجاهه بعد ذلك}(٢).

كنيتـــه ولقبـــه :

أما عن تلقيب الحارث – بالمحاسبى – فقد يكون عائدا إلى شدة محاسبته نفسه أو لأنه كان له حصى يعدها ويحسبها عند الذكر(٣).

ويروى لنا الإمام القشيرى كان لا يأكل طعاما فيه شبهة حيث يقول {كان المحاسبى إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع منه}(٤).

ويروي لنا الإمام القشير أنه والخطيب البغدادى والحافظ الذهبى عن الجنيد أمراً آخر هو أن الطعام الذى فيه شبهة إذا قدم للمحاسبى فأكل منه لم يستطع بلعه ويقول المحاسبى فى ذلك – أن بينى وبين الله علامة أن لا يسوغنى طعاما فيه شبهة فلم يمكننى إبتلاعه(٥).

وسواء أكانت العلامة بينه وبين الله عرق فى إصبعه أو علة فى بلعومه أو شم رائحة نتنه فيه فلم تقبله النفس فإن هذا إذا صح فإنه يدل على مبلغ ورعه وشدة محاسبته لنفسه وعلى تورعه عن الشبهات ويكفى أن نعلم أنه ترك مال أبيه مع شدة حاجته إليه شدة فى الورع.

(١) إسناد السائرين صـ ٨ .

(٢) مقدم فهم القرآن والعقل صـ ١٨ .

(٣) السابق صـ ٢٠ .

(٤) الرسالة القشيرية صـ ١٣ .

(٥) انظر الرسالة القشيرية صـ ١٣ ، تاريخ بغداد جـ ٨ صـ ٢١٣ ، ٢١٤ ، وتاريخ الإسلام صـ ٢٠٧ .

مكـــانتـه العلميـــــة :

ذكر لنا الإمم القشيرى مكانة الإمام المحاسبى العلمية وبينها حيث قال عنه {عديم النظير في زمانه علما وورعا ومعامله وحالا}(١).

وهذا الذى ذكره القشيرى يعطينا الملامح العامة التي تبين لنا منزلته ومكانته بين علماء عصره - عصر إزدهار الحضارة الإسلامية - عصر كان علم الكلام البضاعة الرائجة في ذلك العصر الذي ظهر فيه المعتزلة سواء بالبصرة أم بدار السلام وكثرت المقالات وتعددت الفرق وانتشرت الآراء وشجع الخلفاء أنفسهم فى مجالسهم حرية الرأى ولو بلغت تلك الآراء من التطرف ماتمس العقيدة وشغل الناس بالجدال وحدثت محن وفتن.

فالمحاسبى لم يوجد له نظير فى زمنه فى علمه وورعه ومعاملاته وحاله ويكفى أن نعلم أن الزمان الذى وجد فيه المحاسبي كان عصر المنازعات والخلافات بين أرباب المذاهب وأنصار الفرق المختلفة فلقد كان النزاع قائما بين المعتزلة من جانب وأهل الحديث والفقهاء من جانب آخر وكذلك كان النزاع موجودا بين الشيعة من جانب والخوارج من جانب آخر وفى هذا العصر أخذت كل فرقة من هذه الفرق تجذب النص - القرآن والحديث - طرفها وتدعى كل فرقة أنهم أهل السنة والجماعة وماعداهم ضال مضل.

ولما كان الإمام المحاسبى قد بلغ مكانة علمية فائقة وسط خضم هذه التيارات الفكرية والمعارك الكلامية بين أنصار الفرق والمذاهب وكان لرأيه السديد مكانته الذى حدا به إلى أن يكون إمام المسلمين آنذاك بلا منازع : يقول عنه التميمى {هو إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام}(٢).

وإذا كان المحاسبى قد بلغ هذه المكانة العلمية العالية والتي كانت سببا أن يتخذ إماما للمسلمين فى هذا الوقت وأن يُقتدى به وهذا هو الذى جعل إبن خفيف يوصى اتباعه بأن يتخذوا خمسة رجال من أعلام التصوف قدوة لهم على أن يكون أولهم الإمام المحاسبى حيث يقول {إقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا حالهم. الحرث بن أسد المحاسى والجنيد بن محمد وأبومحمد رويم وأبوالعباس بن عطاء وعمرو بن عثمان المكى لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق}(٣).

(١) الرسالة القشيرية صـ ١٢

(٢) الكواكب الدرية للمناوى جـ ٢ صـ ١٨ه نقلا عن حسين القوتلى فى مقدمة العقل وفهم القرآن صـ ٥١ .

(٣) الرسالة القشيرية صـ ١٣ .

وابن خفيف حينما يوصي أصحابه بأن يتخذوا هؤلاء قدوة لهم علل رأيه بقوله «لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق جمعوا بين العلم العقلى والرؤية القلبية فأصبح المعلوم عندهم جليا واضحا ثم إن الإمام المحاسبى لم تكن ثقافته خاصة بفن من فون المعرفة بل إنها كانت عامة شاملة لجميع العلوم والمعارف التى كانت موجودة آنذاك فهو كما قال التميمي إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام فهو فقيه مع الفقهاء محدث مع المحدثين شيخ الطريق للصوفيه والمريدين متكلم مع المتكلمين قال عنه الحافظ الذهبى {وكان الحارث كبير الشأن قليل المثل}(١).

ويكفى أن تعلم أن العلماء قد شهدوا له بعلو المنزلة وسموا المكانة : قال ابن مسروق قال حارث المحاسبى لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل التوفيق. قال وسمعت الحارث يقول ثلاثة أشياء عزيزة حسن الوجه مع الصيانة وحسن الخلق مع الديانة وحسن الإخاء مع الأمانة. ومن كلامه ترك الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين وتركها مع نسيانها صفة العارفين...}(٢).

وقال عنه إبن النديم إنه {من الزهاد المتكلمين على العبادة فى الدنيا والمواعظ وكان فقيها متكلما مقدما كتب الحديث وعرف مذاهب النساك...}(٣).

كتبـــه :

لقد كتب الإمام المحاسبى فى جميع فنون العلم وفروع المعرفة كتب فى الفقه والتفسير والحديث والتصوف والكلام وأصول الديانات وقد وصلت كتبه إلى مايزيد على المائتين.

يقول الدكتور عبدالحليم محمود [أما كتبه فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف حسبما روى السبكى فى طبقات الشافعية والمناوى فى الكواكب الدرية](٤).

وإذا كان السبكى والمناوى قد بينا لنا عدد ماصنفه المحاسبى من الكتب إلا أن الخطيب البغدادى وابن النديم يبرزان لنا أهمية هذه الكتب ومكانتها فى عصره والعصور التالية له.

يقول الخطيب البغدادى {والحارث كتب كثيرة فى الزهد وفى أصول الديانات

---

(١) تاريخ الإسلام صـ ٢٠٨ .

(٢) السابق صـ ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٣) الفهرست لابن النديم صـ ٢٦١ .

(٤) مقدمة الرعاية لحقوق الله للدكتور عبد الحليم محمود دار المعارف الطبعة الثانية صـ ١١ .

والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرها وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع وذكر أبوعلي إبن شاذان يوما كتاب للحارث فى الدماء فقال : على هذا الكتاب عول أصحابنا فى أمر الدماء والتي حدثت بين الصحابة}(١).

وإذا كان البغدادى قد بين لنا مكانة كتب المحاسبى وأطلعنا على كتاب الدماء وماله من المكانة العلمية عند علماء عصره والذين أتو من بعده فإن إبن النديم يزيد الأمر وضوحا ويطلعنا على كتاب آخر للمحاسبى حيث يقول {وله – المحاسبى – من الكتب كتاب التفكر والاعتبار}(٢).

ويزيد الحافظ الذهبى الأمر وضوحا فيقول {وقال أبوسعيد بن الأعرابى فى طبقات النساك : كان الحارث قد كتب الحديث وتفقه وعرف مذاهب النساك وآثارهم وأخبارهم وكان من العلم بموضع}(٣).

من أقوال هؤلاء جميعا نستطيع أن نقول إن المحاسبى كان رجلا على ثقافة عالية أهلته لأن يكتب فى جميع فروع العلم وفنون المعرفة وأنه كان ذو عقلية فذة جعلته يناقش المعتزلة والروافض والحشوية وأن يلزمهم من داخل مذاهبهم بإلزامات لا يستطيعون دفعها كما أن ذلك ينبئ على أنه رجل صاحب فكر ثاقب أهله لأن يكتب فى أصول الديانات. يقول الدكتور عبدالحليم محمود {ولقد كتب المحاسبى في هذه العلوم جميعها بيد أن مسحته الظاهرة ونزعته الواضحة والكثرة الكثيرة من كتبه إنما كانت فى التصوف والكلام}(٤).

وقبل أن أذكر أسماء كتب الإمام المحاسبي والتى كتب لها الظهور على مسرح الحياة المعاصرة لابد أن تصحح الخطأ الذى وقع فيه الدكتور حسين القوتلى فهو يقول {فهذه الكثرة من الكتب التى يبلغ بها الخطيب المائتين وهو ثقة فى هذه لأنه بغدادى والحارث بغدادى ولأنه ليس متأخرا عنه كثيرا ولأنه واسع الإطلاع على الكتب لأثير استغرابنا}(٥).

فالدكتور يشير إلى أن الخطيب البغدادى قد صنف كتب المحاسبى وجعلها مائتين على حين أن الخطيب البغدادى لم يشر إلى عدد ما صنفه المحاسبى وإنما أشار إلى أهمية ماصنفه : فضلا عن أنه قد وقع فى الخطأ الذي وقع فيه إبن

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ صـ ٢١١ .
(٢) الفهرست صـ٢٦١ .
(٣) تاريخ الإسلام صـ ٢٠٩ .
(٤) مقدمة الرعاية صـ ١٢ .
(٥) مقدمة فهم القرآن والعقل صـ ٦١ .

النديم من قبل حيث نسباه إلى بغداد على حين أن المحاسبي بصري الأصل وليس ببغدادي وقد تفضل مشكورا مبين ذلك في صدر مقدمته التي قدم بها « مائية العقل ، وفهم القرآن » .

أما عن كتب الإمام المحاسبي والتي وصلت إلينا : فهي :

«النصائح والوصايا» - كتاب الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين - آداب النفوس رسالة المسترشدين - التوهم - مائية العقل ومعناه - كتاب العظمة - كتاب إحكام التوبة - كتاب الدماء - كتاب المكاسب - كتاب المسائل في الزهد وغيره - كتاب المسائل في أعمال الجوارح - كتاب الرعاية لحقوق الله - كتاب فهم القرآن.

على أنه يجب أن نعلم أن باقي كتبه منها مافقد فيما فقد ومنها مازال مطموراً ولم يكتب له الخروج بعد أما عن كتبه الكلامية فإنه لم يظهر منها شيئاً سوى كتابي «مائية العقل ، وفهم القرآن» أما باقي كتبه الكلامية فإننا لا نعلم عنها شيئاً فلعلها فقدت فيما فقد ، ولعلها مازالت مطمورة إلى الآن ولم تتح الفرصة بعد لاخراجها إلى النور.

تلاميـــــذه :

يذكر لنا الحافظ الذهبي أنه كان هناك تلاميذ أخذوا عن الحارث المحاسبي العلم والمعرفة وصاروا قادة وعلماء للأمة حملوا الراية من بعده في تبليغ دعوة الحق إلى الخلق وكانوا منارة للسالكين إلى رحاب المعرفة واليقين ومن هؤلاء التلاميذ {أبوالعباس بن مسروق وأحمد بن القاسم أخو أبي الليث وأحمد بن الحسن بن عبدالجبار الصوفي والجنيد رحمه الله وإسماعيل بن إسحاق السراج وأبوعلي بن خيران الفقيه واسمه حسين[1] .

وهؤلاء العلماء هم الذين نقلوا آثاره ووصلت أخبارهم إلينا على أنه يجب أن نعلم أن له عدد كبير من التلاميذ والرواد الذين كانوا يأخذون عنه العلم والمعرفة إلا أن أخبارهم لم تصل إلينا ولم نعلم عنهم شيئاً ومما يدل على ذلك مارواه الحافظ الذهبي عن إسماعيل بن إسحاق السراج أنه في يوم من الأيام دعا الحارث وأصحابه عنده فقال له الحارث فيهم كثرة فلا تزدهم على الكسب والتمر[2].

فهذا يدل على أنه كان هناك عدد كبير من التلاميذ للحارث ولكنه لم يصلنا عنهم

(١) تاريخ فهم الإسلام صـ ٢٠٥ . (٢) السابق صـ ٢٠٨ .

شيئاً .

المحاسبي والإمام أحمد بن حنبل :

ذكر الباحثون القدامى والمحدثون أنه كانت هناك عداوة شديدة بين الامامين – المحاسبي وابن حنبل – بسبب ميول الإمام المحاسبي إلى علم الكلام وأن الإمام أحمد قد شن عليه هجوما عنيفاً بسبب هذه المسألة وألب عليه العامة لدرجة أنه لما مات لم يشيع جنازته ولم يصلى عليه إلا أربعة نفر {فالإمام أحمد رضي الله عنه قاطع الذين يخضعون فى غير مأثر عن السلف مقاطعة تامة : حتى إنه ماكان يستجيز لنفسه الرد عليهم وكان على ذلك إلى أن مات ولقد كتب إليه رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام فكتب إليه أحمد رضي الله عنه الكتاب التالى :

أحسن الله عاقبتك الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ وانما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما فى كتاب الله ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب وجلوس مع مبتدع ليردوا عليه بعض مايليس عليه فى دينه}(١) .

لقد كان الإمام أحمد ينهى الناس عن علم الكلام وهو العلم الذى يتكلم فى العقائد الدينية بطرق عقلية ويدافع عنها بالحجج المنطقية ويرد الشبهات التى أثيرت حولها بطرق عقلية فكان يذم أهل الكلام وإن أصابوا وينهى عن تدقيق النظر فى أسماء الله تعالى وصفاته .

يقول الامام محمد أبوزهرة {وماكان ذلك النهى – يقصد النهى عن علم الكلام – إلا أن هذا المسلك لم يسلكه السلف ولأنه أن أدى إلى الصواب مرة فقد يؤدى إلى الضلال وقد يتيه العقل به فى متاهات لا جدوى عند النجاة منها وفيها الضلال البعيد إن لم تكن النجاة}(٢) .

ولعل هذا السبب – النهى عن التحدث فى علم الكلام – كان هو السبب المباشر للخصومة التى وقعت بين الإمام المحاسبي والإمام أحمد بن حنبل ويبين لنا ذلك الخطيب البغدادى فيقول :

{وكان أحمد بن حنبل يكره لحارث نظره فى الكلام وتصانيفه الكتب فيه ويصد الناس عنه}(٣) . ويفصل لنا الإمام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال مادار بين

---

(١) ابن حنبل حياته وآراؤه - للإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر الحديث ط ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ٨ ص ٢١٤ .

الإمام أحمد بن حنبل والامام المحاسبى وإنكار الإمام بن حنبل لمذهب المحاسبى الكلامى فيقول {فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى رحمهما الله تصنيفه فى الرد على المعتزلة. فقال الحارث. الرد على البدعة فرض. فقال أحمد نعم ولكن حكيت شبهتهم أولا .. ثم أجبت عنها فلم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه}(١).

وأرى أن الإمام بن حنبل كان يكره أن يطلع العوام على ماكتبه الإمام المحاسبى فى علم الكلام حيث إن العوام لا يستطيعون أن يفرقوا بين الشبهة والرد عليها ولذلك نجد إنكار الإمام أحمد على الإمام المحاسبى ممثلا فى قوله {ولكنك حكيت شبهتهم أولا}. ثم يعلل ذلك بقوله (فلم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه) - إذن فالعوام حديثهم الملائم لطبيعة فكرهم وللخواص حديثهم المتفق وتوقد أذهانهم ولذلك نجد أن الإمام بن حنبل كان له مجلسان مجلس للخواص فى منزله ومجلس للعوام فى المسجد يقول الشيخ أبوزهرة {ويظهر أنه كان له مجلسان للدرس والتحديث (أحدهما) فى منزله يحدث فيه خاصة تلاميذه وأولاده : والثانى فى المسجد يحضر إليه العامة والتلاميذ}(٢).

ومن ناحية ثانية فإن إنكار الإمام إبن حنبل لمنهج المحاسبى الكلامى لم يكن لاختلاف عقيدة الإمام المحاسبى. كلا ، ولكن لاختلاف الطريقة والمنهج يقول الدكتور عبدالحليم محمود {على أن رأى المحاسبى فى المسائل الكلامية معروف تحدث عنه الشهرستانى وغيره ممن كتبوا فى الملل والنحل وهو الرأى السلفى ولم نكن حملة الإمام أحمد عليه لرأيه وعقيدته. فذلك أمر يتفق فيه الإمامان وانما كان إنكار الامام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين}(٣) .ومع إنكار الإمام أحمد لمنهج المحاسبى ومع صد الناس - العوام - عن مطالعة كتبه لم يستطع هو أن يبتعد عنه ولا أن يهجر مجلسه ولا أن يمتع عقله بالسماع إلى حديث المحاسبى ذلك لما يعلمه من قوة حجته وغزارة علمه وحسن سلوكه وفيض المعارف عليه. ويذكر لنا الخطيب البغدادى مايوضح ذلك فيقول :

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى مع أبحاث فى التصوف .. بقلم الدكتور عبدالحليم محمود - دار الكتب الحديث طـ ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) ابن حنبل للامام محمد أبو زهرة ص ٣٩ .

(٣) مقدمة الرعاية لحقوق الله .. ص ١٣ .

ومع إنكار الإمام أحمد لمنهج المحاسبي ومع صد الناس - العوام - عن مطالعة كتبه لم يستطع هو أن يبتعد عنه ولا أن يهجر مجلسه ولا أن يمتع عقله بالسماع إلى حديث المحاسبي ذلك لما يعلمه من قوة حجته وغزارة علمه وحسن سلوكه وفيض المعارف عليه. ويذكر لنا الخطيب البغدادي مايوضح ذلك فيقول : [أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب ... يقول سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول : قال لي أحمد بن حنبل يوما بلغني أن الحارث هذا يعني - المحاسبي - يكثر السكون عندك فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فاسمع كلامه ؟ فقلت السمع والطاعة ياأباعبدالله وسرني هذا الابتداء من أبي عبدالله فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة فقلت وقل لأصحابك أن يحضروا معك فقال ياإسماعيل فيهم كثرة فلا تزدهم على الكُسْب والتمر واكثر منهما ماإستطعت .. ففعلت ماأمرني به وانصرفت إلى أبي عبدالله فأخبرته. فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار. فاجتهد في ورده إلى أن فرغ .. وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ثم قاموا لصلاة العتمة ولم يصلوا بعدها و قعدوا بين يدي الحارث وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل .. فابتدأ واحدا منهم وسأل الحارث عن مسألة فأخذ في الكلام وأصحابه يستمعون وكأن على رؤسهم الطير فمنهم من يبكي ومنهم من يزعق. وهو في كلامه. فصعدت الغرفة لا تعرف حال أبي عبدالله فوجدته قد بكى حتى غشي عليه فانصرفت إليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا . فقاموا وتفرقوا فصعدت إلى أبي عبدالله وهو متغير الحال فقلت كيف رأيت هؤلاء؟ فقال ماأعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل. وعلى ماوصفت من أحوالهم فإني لا أرى لك صحبتهم](1).

وماذكره الخطيب البغدادي يشير إلى عدة حقائق هامة.

الأولى : أن الخلاف بين الإمامين لم يكن قد وصل إلى درجة الكفر والتفسيق والتضليل كما يظن بعض الكتاب إنما كان الخلاف بينهما في المنهج والأسلوب.

الثانية : ومع اختلافهما في المنهج إلا أن الحقيقة يجب أخذها من أي عالم كان وهذا يدل على أن الإمام يطبق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحكمة ضالة المؤمن». فلو أن الإمام أحمد لو كان يعلم أن المحاسبي ليس صاحب علم وورع وتقوى ماجلس إليه وماإستمع لحديثه.

---

(1) تاريخ بغداد جـ٨ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .